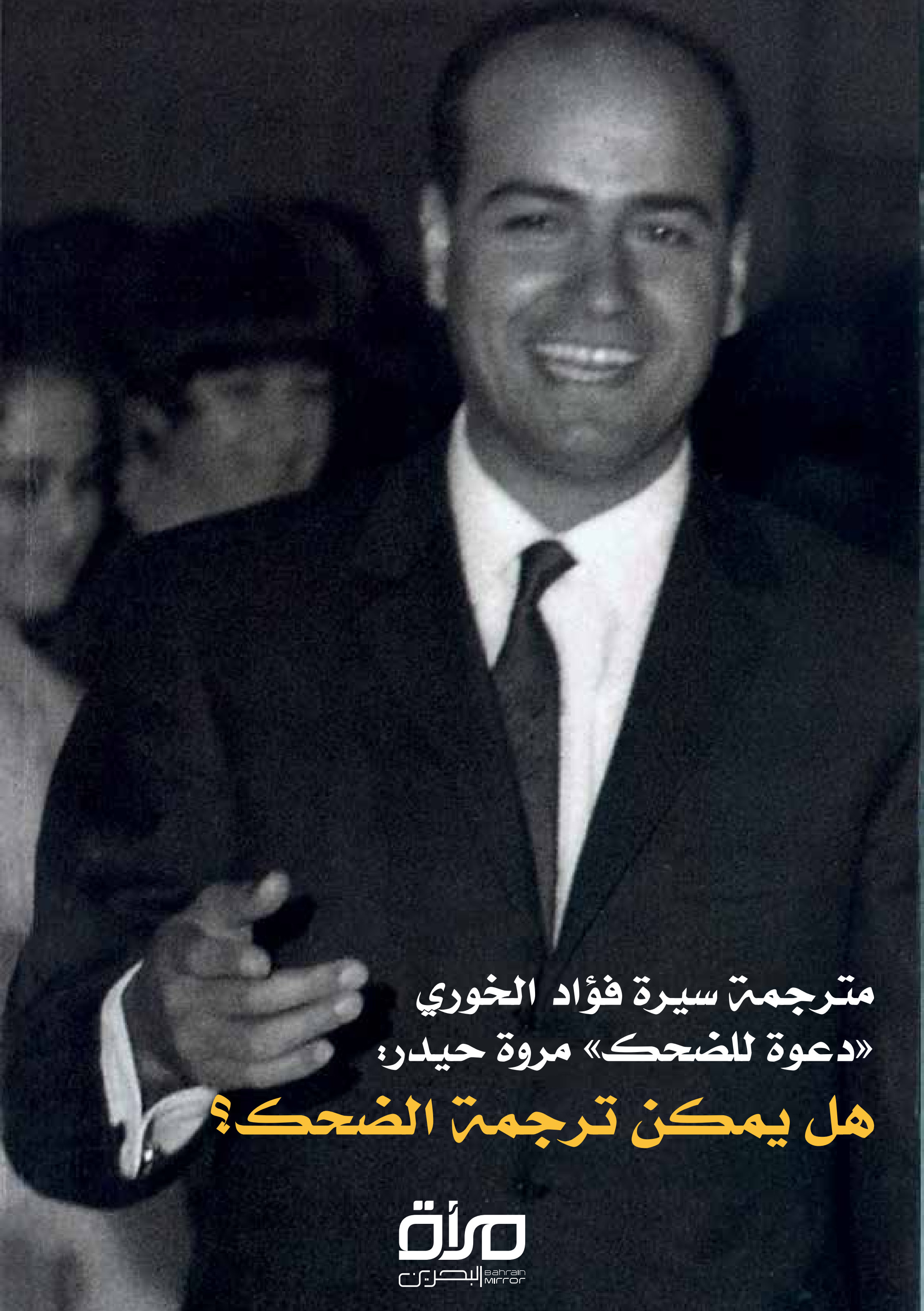

مترجمة سيرة فؤاد الخوري
«دعوة للضحك» مروة حيدر:
هل يمكن ترجمة الضحك؟
مرآة البحرين
Bahrain Mirror

المقدمة

قدّمت «مرآة البحرين» في ديسمبر 2016 لجمهور معرض بيروت الدولي للكتاب النسخة المترجمة من كتاب «دعوة للضحك» للعالم اللبناني الراحل فؤاد إسحاق الخوري، صاحب كتاب «القبيلة والدولة»، أحد أهم المؤلّفات الاجتماعية والسياسية عن البحرين عبر التاريخ.

و«دعوة للضحك» هي مذكّرات الخوري، البروفيسور وعالم الأنثروبولوجيا اللبناني الذي كتب عن العالم العربي. ويحتل عمل الخوري في البحرين حيّزًا كبيرًا من سيرته الموثّقة في هذا الكتاب، الذي ينشر بالعربية لأول مرة، منذ صدوره بالإنجليزية عام 2007.

بمناسبة يوم الترجمة العالمي، تنشر «مرآة البحرين» للقراء، حوارًا مع مترجمة الكتاب (مروة حيدر)، وتعيد نشر الفصلين الخاصين بالبحرين من كتاب سيرته «دعوة للضحك»، وفيهما تفاصيل كثيرة عن زيارته الميدانية بين عامي 1974 ـ 1975.

تحدّث في هذين الفصلين بحماسة وشغف عن هواجسه وهو يترقب ردود فعل البحرينيين على كتابه (القبيلة والدولة) وكم فرح حين

عرف بالجدل الذي أثاره وبالملاحقة التي بذلها الناس في تتبع منافذ بيع الكتاب في الكويت وبيروت ولندن. وقال إنه حين عرف أن الكتاب منع تداول ترجمته في البحرين، رتّب لزيارة عبر الجامعة الأميركية، وراح يتصل بوزير شؤون الإعلام وشيوخ آل خليفة ولم يعطه أحد جوابًا، سوى أن «فيه أشياء وأشياء»، ولم يجد لفصل سيرته التي تحدث فيها عن هذا الكتاب ومنعه غير عنوان «أسرار معلنة... للنقاش لا للنشر».

مترجمة سيرة فؤاد الخوري «دعوة للضحك» مروة حيدر :

هل يمكن ترجمة الضحك؟



مـرآة البحريـن (خـاص):« كان ينقلنـي مـن حالـة إلى حالـة». هـذا مـا تقولـه مـروة حيـدر مترجمـة كتـاب «دعـوة للضحـك» عـن عـالم الأنثروبولوجيا اللبناني فؤاد إسحاق الخوري، واصفة شعورها أثناء عملهـا عـلى ترجمـة الكتـاب.

وتقـول «بـدأت أشـتغل عـلى الكتـاب باعتبـاري مترجمـة تنقـل سـيرة شـخص بـين لغتـين (...) لكنـي بعـد ذلـك شـعرت أن سـيرة هـذا الرجـل تنقلني من حالـة إلى حالـة، مـن حالـة الجهـل بالكائـن الإنسـاني إلى حالـة المعرفـة بـه».

«دعوة للضحك» هو السيرة الذاتية للخوريّ وآخر كتاب صدر له قبل رحيله في العام 2003؛ إذ قام بتسليم مسودته إلى زوجته سونيا خوري قبل وفاته بيومين.

لكن هل استطاع خوري أن يوصّل دعوته إلى الضحك؟ تقول حيدر «لا يمكنني القول إن دعوته وصلت فقط لكنني أيضا لبيتها بكل سرور». وتضيف «في كثير من الأحيان عندما كنت أتعب من الترجمة كنت أكمل قراءة الكتاب بكل شغف. كثيرا ما حملت هذا الكتاب وكأنه قصة ما قبل النوم، وكثيرا ما كان ينتهي بي الأمر لأطلق ضحكات يتعجب منها من حولي».

فيما يلي مقتطفات من الحوار مع مترجمة كتاب «دعوة للضحك: سيرة عالم أنثروبولوجيا لبناني في العالم العربي»:

يتحدث فؤاد الخوري عن خلاصة تجربته في التدريس بالجامعة الأمريكية بقوله «الأفكار التي كنتُ أحبها كانت الفكرة التي يفهمها الطلاب ويتذكرونها. مقياس نجاح محاضرة معينة هو مزاج الأستاذ بعد خروجه من الصف». كيف يبدو مزاجك بعد انتهائك من هذه الترجمة؟

مروة حيدر: أستطيع أن أقول بثقة كبيرة إن فؤاد إسحق الخوري قد ترجمني بقدر ما ترجمته في هذا الكتاب. من المعروف أن الثقافة العربية تسمى السيرة (ترجمة)؛ فسيرة (الخوري) يسميها علماء التراث ترجمة، ومعروفة كتب

التراجم في التراث، وعلم التراجم أو علم تراجم الرجال، هو العلم الذي يتناول سير حياة الأعلام من الناس عبر العصور المختلفة، ككتاب (سير أعلام النبلاء للذهبي) و (معجم الصحابة لأبي نعيم). لاحظوا العلاقة بين معجم وترجمة، الكلمتان تحيلان لمعنى (السيرة).

من يترجم كأنه يفصح عن الغموض الذي في سيرة الشخص، يجعلها واضحة، تماما كما يفعل المعجم يوضح لنا الغامض من الكلمات وقدم لنا سيرة حياة الكلمة. وجدت في عملي على سيرة (الخوري) أني أقوم بذلك بشكل مزدوج، لقد بدأت أشتغل على الكتاب باعتباري مترجمة، تنقل سيرة شخص بين لغتين، وتستعين بالمعجم في عملها. لكنني بعد ذلك شعرت أن سيرة هذا الرجل بحسها الأنثربولوجي العميق كأنها تترجمني، تنقلني من حالة إلى حالة، من حالة الجهل بالكائن الإنساني إلى حالة المعرفة به، من حالة الجهل بحالي ونفسي إلى حالة المعرفة بها والوضوح بحالتها. شعرت كأني أجلس معه في محاضرته بالجامعة الأمريكية وهو يشرح الأفكار التي يحبها، كأن مزاجه بعد محاضرة يقدمها رائعة قد انتقل لي بعد ترجمة أقدمها رائعة. أظن أني تمكنت لحد كبير من ترجمة روحه في هذا الكتاب، وأظن أن القرّاء لن يقرأوا ترجمة لكلمات من لغة إلى لغة، بل يقرأون ترجمة بمعنى سيرة نابضة بالحياة والضّحك.

تقول زوجته في تقديمها للكتاب «أنا وأطفالي، نتذكر تماما اليوم الذي خرج فيه فؤاد ليعلن بلهجة المنتصر عنوان كتابه: دعوة للضحك. وضع عدة عناوين، وفي النهاية، وقع خياره على أكثر

ما كان يريدنا أن نربطه به وبمهنته». هل وصلتك دعوته للضحك وأنت تترجمين سيرته؟

مروة: لا يمكنني القول إن دعوته وصلت فقط لكنني أيضا لبيتها بكل سرور. في كثير من الأحيان عندما كنت أتعب من الترجمة كنت أكمل قراءة الكتاب بكل شغف. كثيرا ما حملت هذا الكتاب وكأنه قصة ما قبل النوم، وكثيرا ما كان ينتهي بي الأمر لأطلق ضحكات يتعجب منها من حولي. سألتني مرة صديقتي ما هذا الكتاب الذي أراك تحملينه أين ما كنت، ما هذا الكتاب الذي تصبحين معه في عالم ثان عند قراءته؟ فؤاد خوري لم يعلمني الضحك فقط عندما أسمع نكتة أو أكون سعيدة. عالم الأنثروبولوجيا هذا علمني أن الضحكة هي السلاح الذي أتغلب به على جميع المصاعب. منذ فترة التقيت بصديق لم أره منذ مدة بعد أن وجه لي اسئلة وأجبته قال لي إنه سعيد جدًّا أنني استطعت رغم صعوبة ظروفي أن أتحدث عنها بابتسامة.

لقد تسلمت زوجة فؤاد الخوري مسودة سيرته قبل وفاته في 2003 وهي كانت شاهدة على حياته ورفيقة له في أبحاثه وتقول في شهادتها على الكتاب «العنوان الذي اختاره فؤاد لسيرته الذاتية المحترفة يعبّر عن طبيعته ومهنته. فبعض القصص التي احتواها تبعث على الضحك بسرور، وبعضها الآخر حكايا أكثر رصانة». هل وجدت صعوبة في ترجمة روح الضحك وروح الجد في حياته؟

مروة: لم يضحك فؤاد خوري يومًا على أحد أو شيء من باب السخرية والاستهزاء. أهم ما يميز عالم الأنثروبولوجيا هذا هو الاحترام الذي يكنه للآخر. كان حريصًا على أن لا يقلل من شأن أحد. حتى عندما كان ينتقد أحدا بشكل مباشر أو غير مباشر يتجنب ذكر اسمه. هذا على الصعيد الشخصي، أما على الصعيد الثقافي بشكل عام كان الكاتب يهتم بأدق التفاصيل يستمتع بتحليل مزايا ثقافة معينة، لا بل يطلب من أهلها أن يمارسوها بكل حرية وأن يتمسكوا بها وأن تكون مدعاةً لفخرهم. لفتني في الفصول الأولى من الكتاب عندما طلب من أحد رجال قريته في شمال لبنان أن يحافظ على لباسه القروي (الشروال) فدفع له ثمن خياطة هذا الزي. يقول فؤاد خوري إن علم الأنثروبولوجيا يمزج بين المراقبة والمشاركة، وقد أحسن الخوري المزج بين الطريقتين. لقد شارك أصحاب الثقافات الأخرى عاداتهم وتقاليدهم، عاش بينهم ووضع نفسه مكان كل منهم. لقد أراد فؤاد خوري من كتابه أن يكون دعوةً للضحك واحترام الآخر وتقبله والتعايش معه، مهما اختلفت معتقداته أو عاداته.

من المناسب أن أستشهد بالشاعر الفيلسوف الإنجليزي كولردج صاحب نظرية الخيال حين قال: «إن حصر الضحك في التعبير عن الازدراء مناقض للواقع» وهذا ما دفع الفيلسوف هنري برغسون في العام 1911 ليطرح كتابه «الضحك».

الضحك يدل على الإدراك وهو يشبه ميزة النطق عند

الإنسـان، كلا الصفتـين يختـص بهـما الإنسـان. أظـن (فـؤاد) أراد وهـو المختـص بالإنسـان وثقافتـه أن يلفتنـا إلى أن ثقافـة البـشر مختلفـة ومتعـددة وأن ذلـك يدعونـا إلى الاسـتمتاع والضحـك وتقبـل هـذا الاختـلاف بـروح المـرح لا روح الاسـتغراب والتعصـب والاسـتنكار والازدراء. وأظنـه أراد أن يجعـل سـيرته المكتوبـة مطابقـة لسـيرته الحقيقيـة كـما مارسـها، فشـخصيته كـما تؤكـد زوجتـه في تقديمهـا للكتـاب كان شـخصية مرحـة. أكاد أقتنـع تمامـا أن (فـؤاد) أراد أن يرسـم صـورة لعـالم الأنثروبولوجيا بعيـدة عـن التجهـم والصرامـة والجفـاف، أرادنـا أن نُـدرك بالضحـك مـا يفوتنـا فهمـه بالجـد.

عنوان أحد فصول سيرة فؤاد الخوري (أن تكون لبنانيًّا... جنسية أم مهنة؟). ما هو جوابه؟

مـروة: في هـذا الفصـل، وكـما في كل فصـول دعـوة للضحـك، أراد خـوري أن يـسرد قصصـا طريفـة حدثـت معـه. ومـن بـين هـذه القصـص مـا جـرى في أحـد مطـارات أفريقيـا عندمـا سـأله رجـل الأمـن في المطـار عـن جنسـيته فأجابـه بأنـه لبنـاني. لكـن رجـل الأمـن لم يقتنـع أن «لبنـاني» تعنـي جنسـية وليسـت مهنـة وذلـك لأن الأفارقـة تعـودوا عـلى أن يكـون اللبنـاني في بلادهـم تاجـرا فـكان الربـط لزامـا بـين اللبنـاني والتجـارة.

يقـارب الخـوري هـذه القصـة بشـكل طريـف يجـبرك وبـكل رحابـة صـدر عـلى أن تلبـي دعوتـه للضحـك. وقـد أراد مـن وراء

اختيـار العنـوان عـلى هـذا الشـكل (سـؤال) أن يقـدم أمـرا غـير مألـوف مـن خـلال عـرض احتـمال غـير منطقـي بـين الأجوبـة، لأن اللبنـاني تعنـي بـكل بسـاطة جنسـية وهـي ليسـت مهنـة. لذلـك لم يطـرح السـؤال بهـدف البحـث عـن إجابـة بقـدر مـا كـان يهـدف إلى طـرح قصـة غريبـة وطريفـة.

تحدث فؤاد الخوري في سيرته كثيرا عن تجربة المهاجرين اللبنانيين في أفريقيا (السينيغال، غينيا، سيراليون، ساحل العاج، بوركينا فاسو، غانا ونيجيريا). كيف وجدهم وكيف وجد تجربتهم؟

مـروة: لقـد نقـل فـؤاد خـوري بأمانـة في هـذا الفصـل تجربـة المهاجريـن اللبنانيـين في غـرب أفريقيـا، وكعادتـه في طريقـة سرد الأحـداث جعلنـا نشـعر وكأننـا معـه في رحلتـه التـي تنقـل خلالهـا بـين دول عديـدة. نقـل لنـا صـورا مختلفـة عـن التجـار اللبنانيـين: صـورة التاجـر الغنـي الواثـق مـن نفسـه، وصـورة التاجـر الـذي لم يحقـق نجاحـا في سـفره (وأخـوه يعقـوب أحـد هـؤلاء). كـما وصـف التجـار الأغنيـاء عـلى أنهـم ذو حيويـة لكـن مضيفـه (مـن آل عطيـة) لم يكـن كذلـك بـل كان تاجـرا هادئـا.

ونقـل خـوري صـورة التاجـر اللبنـاني (الحـذق) الـذي يبيـع الزبـون فـردتي حـذاء للرجـل اليسرى ثـم يحـاول إقناعـه في اليـوم التـالي أن يشـتري فـردتي اليمنـى. ولم ينـس خـوري أن يتحـدث عـن التجـار اللبنانيـين الذيـن ينتقـدون بـلادة الأفارقـة ولكنهـم في الواقـع أكثـر كسـلا منهـم. بالإضافـة إلى التجـار المتذمريـن مـن

كونهم «ينهون يومهم بالخسارة» مع أنهم اشتروا بيوتا في لبنان وأرسلوا أموالا لأهلهم.

باختصار هو استعراض لطبيعة التجار اللبنانيين، وكأنه يقول لهم: احذروا الحكم على الناس وتعميم هذا الحكم، فأنتم لستم أفضل من غيركم.

كيف تحدّث في سيرته عن تجربة عمله في البحرين فترة إعداده لكتابه (القبيلة والدولة)؟

لقد خصص فصلين عن البحرين، في كتاب سيرته، لقد عبر عنه حبه للبحرين بقوة، وقد شكل هذا الحب منافساً لمهنيته ومتطلبتاه من الموضوعية، حتى قال»أردت أن أكتب كتاباً يعبّر عن مشاعري تجاه هذا البلد من دون المجازفة بمهنيتي».

وقد قال بوضوح»أحببت البحرين وناسها» لقد بلغ شغفه بالبحرين إلى حد أنه أهدى كتابه (القبيلة والدولة بالبحرين... تطور نظام السلطة وممارستها) إلى دانة، وهي اسم شائع يستخدمه السنة والشيعة للإناث في البحرين، وهذا يعطينا دلالة أنه أحب البحرين بتكوينها المتعدد.

سيجد القارئ في فصل «أسرار معلنة.. للنقاش لا للنشر» تفاصيل كثيرة عن البحرين في السبعينيات، وكيف تمّ منع كتابه من البحرين. لا أبالغ إذا ما قلت إنه كتاب مهم لكل بحريني يريد أن يعرف مجتمعه وثقافته وتاريخه.

أخيراً، كيف تقييمن تجربتك في ترجمة الكتاب؟

لقد قرأت سيرته في لغتها الانجليزية لكني ضحكت كثيرا بفمي العربي، لقد أثّر كثيرا في فهمي لعالمي العربي، وأحببت تجربتي في ترجمته، وبالمناسبة الفصول الأخيرة من كتابه، تمّ إسنادها إلى مترجمات أخريات، وقد أجدن ترجمتها، وكنت أتمنى أن أترجمها أنا لأسباب تتعلق بتعلقي وحبي للكتاب.

د. فؤاد إسحاق الخوري



سيرة عالم أنثروبولوجيا لبناني في العالم العربي

اكتشاف الأصول

خيار الأنثروبولوجيا

الفصل الأول

هذه قصة مهنتي في الأنثروبولوجيا، التي بدأت عام 1956، عندما كنت طالبًا في السنة الثانية في الجامعة الأمريكية في بيروت. ولأنني لم أكن مهتمًّا بمادة معينة، أُدرج اسمي بين ما كان يسمى وقت ذاك «مجموعة اختصاصات» كانت تضم في حالتي مواد التاريخ وعلم الاجتماع والتربية. اخترت التربية لسببين: الأول لأنها كانت من بين الاختصاصات التي تغطيها المنحة الدراسية التي كنت أسعى للحصول عليها. والثاني لأن حيازة دبلوم تعليم في هذه المادة يؤمن لي عملًا في لبنان بعد التخرج. إلا أنها كانت تساهم في جعل المرء معلمًا أفضل، وتزيد من راتبه كأستاذ بنسبة 8 بالمئة.

البروفيسور شارل آدامز، والذي كتب عن مصر، كان يدرّسُ (مقدمة للأنثروبولوجيا) في قسم علم الاجتماع. من باب الفضول تسجلت في هذا المقرر. كان آدامز رجلًا غريبًا منعزلًا وكان يبقى وحده. قبل دخوله إلى الصف بدقائق، كان يجمع أطراف السجائر الغليظة وأوراق الأشجار اليابسة وأكواز الصنوبر ومخلفات الأوراق من جميع الأحجام والألوان. كان يرتبها جميعُها في تصميم فني، يصورُها ثم يقدمها للصف. ذات مرة، عندما كان يقوم بترتيب هذه الأشياء، اقتربتُ منه وقلت له: «سيدي، لدي سؤال».

«انتظر»، قال لي وهو يكمل ترتيب النفايات التي جمعها.

«بخصوص مقياس حجم الرأس سيدي»!.

«ا ــ ن ــ ت ــ ظ ــ ر»! قالها وهو يخلط ويعيد خلط هذه المخلفات. وكان يخطو إلى الوراء بين البرهة والأخرى لينظر إلى التصميم من أكثر من زاوية. كان يقوم بتعديل الأحجام حتى ينتهي إلى الترتيب الذي يعجبه أكثر.

وكان كثيرًا ما يكون غير راض عن أي منهم. كان واضحًا أنه كان يستمتع بالعملية نفسها أكثر من نتاجها.

بعد حين، التفت إليّ قائلًا: «جميل أن تحول النفايات إلى فن».

أجبته: «نعم سيدي».

عند المساء، كانت مكنسة عامل القمامة تجرف كل ما تبقى من تصاميم آدامز.

في الصف، نادرًا ما كان يضحك، لكن هناك رنينًا خاصًّا في صوته كان يدفعني إلى الاستماع إلى محاضرته باهتمام. بعيدًا عن صوت البروفيسور، وعن بعض المصطلحات العلمية، لا أذكر شيئًا من هذا المقرر، لكنه أقنعني أن الأنثروبولوجيا يمكن أن تكون ميدان عمل لدراستي.

كان عليّ أن أحضّر لصف آدامز بحثًا عن الانحرافات الرأسية في الشرق الأوسط. في تلك الأيام، كان علماء الأنثروبولوجيا لا يزالون يعتمدون القياسات البيومترية لتقييم الاختلافات العرقية، فالتعريف الجيني للعرق لم يتطور حتى الستينيات (من القرن الماضي). مستفيدًا من المعلومات التي جمعها عالما التشريح ويليام شانكلين وكورنيليوس كابرز، وهما كانا قد مارسا التّدريس في الجامعة الأمريكية في بيروت في الثلاثينيات والأربعينيات، تعلمت أن مقياس حجم الرّأس في الشرق الأوسط يتراوح بين 72 و82. الذين يكون مقياس حجم رأسهم أقل من 75 يتمّ اعتبارهم مستطيلي الرؤوس (أي طويلي الرؤوس). ومن يكون مقياس حجم رأسهم أكثر من 80 يكونوا مستديري الرؤوس. أما من يتراوح مقياس حجم رأسهم بين هذين الرقمين فيكونوا معتدلي الرؤوس. (مقياس حجم الرّأس هو العرض الأقصى للرأس، مقسومًا على الطول الأقصى له، مضروبًا بمئة).

قياس الرأس يكون من خلال استعمال أداة القياس: للعرض يكون بين الأذنين، وللطول يكون من جذر الأنف وحتى مركز الجمجمة. كان واجبي لذاك المقرر أن أقوم بملاءمة جداول شانكلن وكابرز مع بعض أعمالي الميدانية. بدايةً، قمت بقياس رؤوس زملائي في الصف، ثم رؤوس طلاب البيت الداخلي في مبنى كولدج هول. بعدها قمت بقياس رأس مستشار هيئة التدريس الذي أصرّ على أنني اكتشفت «أصله». بعد احتساب مقياس حجم الرأس لكل شخص، كنت أقوم بمقارنته مع بيانات شانكلن وكابرز، والتي كانت تمثل أعراقًا متعددة في الشرق الأوسط، ومن بينها ثلاثةً وعشرين جمجمة فينيقية اكتُشفت في جبيل وصور وبيروت. كمعدل عام، لم يكن متوقّعًا أن يتغير مقياس حجم الرأس بتغير الجنس أو العمر أو الموت. كان يُتوقع أيضًا أن يكون هذا المقياس ثابتًا بين أبناء العرق الواحد نظرًا لأنهم يتبنون عادات وأساليب تربوية واحدة (مثل وضعية رأس الطفل في السرير عند النوم).

بيانات شانكلن وكابرز تضمنت نماذج من التركمان، الأكراد، السريان، عرب الصحراء ومن مختلف الانتماءات الدينية في لبنان: الموارنة، والدروز، والمسلمون الشيعة والسنة. اعتقدت أنه بملاءمة مقياس حجم الرأس (للأشخاص) مع مقياس شانكلن وكابرز العرقي أستطيع معرفة «أصول» هذا الشخص معرفةً تقريبية. وعلى هذا الأساس، بدأت أمزج المقاييس بالضحك لأحسب أصول زملائي: «أنت من أصل كردي، وأنت تتحدر من أصول أرمنية»، كنت أقول لهم. «أنت عربي، وأنت ألماني». بعد ذلك بفترة قصيرة، صرت معروفًا في المبنى بأنني خبير في الأصول. ثم صرت أختصر الطريق بعد ذلك، فتوقفت عن استعمال أداة القياس واستعضت عنها بأن أمدّ أصابعي بمرونة لأخذ القياسات. وقتها، أنجزت واجب المقرر وأتممته، لكن سمعتي تغذّت على ذلك الأمر. الأنثروبولوجيا إذًا كانت طريقي للشهرة في الكولدج هول.

اخترت لرسالة الماجيستير القيام ببحث ميداني عن المطابقة الاجتماعية والإنجازات المدرسية في بلد الأرز (اسم مستعار لبلدة صغيرة في شمال لبنان). لقد كانت دراسة تجمع بين علم الاجتماع والتربية. وكانت تجربة البحث الميداني ذات قيمة أكبر من النتائج التي خلصتُ إليها، يكفي أنها علّمتني كيف أتعامل مع أناس مختلفي الأمزجة والطباع. في هذه الرسالة، كنت أطرح أسئلة سرية، أستفسر عن الأمور الخاصة، أتشاور مع كبار الشخصيات، أفحص وأعيد فحص الملفات الوثائقية وأعرّف الناسَ على بعضهم. لقد كانت تجربة مجزية ناسبت شخصيتي. ولكي أكون مؤثرًا، أطلت ذقني قليلًا.

بحثي الميداني انتهى برسالة حصلت من خلالها على درجة الماجستير، لكن الأهم من ذلك أنها منحتني فهمًا مباشرًا لأنواع الناس. تعلمت أن الثلاثمائة شخص الذين قابلتهم يمكن اختصار أطباعهم ببضعة أنواع من الثقافة الاجتماعية، والتي تتكرر مرارًا وتكرارًا في كل بلدة. مجتمع البلدة هو مسرح تُسَنُّ فيه المسرحيات الهزلية والمآسي على وجه التحديد بشكل مستمر. الرسالة التي كتبتها أثبتت بوضوح التالي: المكانة الاجتماعية والاقتصادية مرتبطة بشكل إيجابي مع الإنجازات المدرسية. ما لم تظهره الرسالة هو اللعبة، المخطط، الرواية غير المكتوبة وتعدد الأشخاص، كلٌّ يريد إثبات شخصيته على حساب الآخرين. الأنواع كانت قليلة، لكن الأشخاص الذين يجسدون هذه الأنواع كانوا كثرًا.

رجالٌ كثر ممن يتوقون ليصبحوا «قبضاي» البلدة أو بطلها، الرجل الذي يُنصّب نفسه على أنه متمسك بالأخلاق وشجاع، الذي لا يُضيّع أي فرصة ليناصر المظلومين، ويكون معروفًا في الوقت نفسه. كل بلدة كان فيها فلاسفة، شعراء، سياسيون، محتالون، محبون، نبلاء، سكيرون، ثرثارون، نساء خليعات، دمى ومهرجون. وكان هؤلاء صناع الأخبار المحلية والصحف الشعبية

والثقافة العاطفية وغير الجدية في بلد الأرز في بداية الستينيات. كان هناك «السياسي» الذي سمّى ابنه خروتشوف ـ بولكانين على اسم الثنائي الذي كان يحكم الاتحاد السوفييتي. كان هناك «المحب»، أحد «شهود يهوه»، الذي هجر زوجته وأطفاله الثلاثة للتبشير بكلمة الله، لكنه عندما التقى فتاة جميلة مسلمة، غيّر ديانته إلى الإسلام وتزوج بها. وكان هناك قس البلدة الذي كان يفضل أن يقبل خدَّه الجميلات ويدَه الأغنياء وبالتالي يتمتع بامتيازات تتراوح بين الجنس والسلطة. التعرف على هذه الشخصيات، أو معرفة أمور خاصة بها أظهر لأفراد المجتمع أنني أفهم ثقافتهم الفردية الخاصة، الأمر الذي منح البلدة شخصيتها الفريدة. هذا ما جعل الناس يضحكون وبالتالي منحني ميزة عظيمة في احتكاكاتي اليومية.

«الفيلسوف» في (بلد الأرز) كان رجلا فقيرًا جدًّا وغير متزوج، في نصف عقده الرابع. كان يعيش وحيدًا في بيت قديم مسكون ويعتاش على المساعدات الخيرية والإكراميات. ملابسه كانت متسخة ورثة، حذاؤه كان غير قابل للتصليح. لكن هذا «الفيلسوف» كان يربي كلبًا، وهنا تكمن المفارقة، لم يكن الفقراء يهتمون بتربية الكلاب، فقط الأغنياء هم من كانوا يقومون بذلك، في أحسن الأحوال كان لديهم كلاب حراسة. لُقّب بـ «الفيلسوف»، لا لحكمته فقد كان بالكاد يعرف كيف يُوقع، بل بسبب ومضات العبقرية المتقطعة التي كانت لديه، والتي كانت تحدث بشكل غير متوقع، ودائمًا في التوقيت الخاطئ. وإليك مثالًا على ذلك:

مات أحد كبار الشخصيات في البلدة، وكانت الجنازة مقررة عصر اليوم التالي. الكثير من الكهنة والقسيسين كانوا مدعوين بشكل رسمي من قبل عائلة الفقيد للمشاركة في المراسم. كلما كان عدد الكهنة وباقي المشاركين في الجنازة أكبر، كانت قيمة الفقيد أكبر، هكذا يعتقد الناس. بعد الجنازة، عادة

ما يعود المشاركون إلى بيت الفقيد ليقدموا واجب العزاء، وعادة ما تكون الطبقة المثقفة من بين هؤلاء ويطرحون أسئلة جوهرية: الحياة والموت، قدر الإنسان، الخلود والخلاص. العائلة المفجوعة وضيوفها يستمعون بهدوء وأدب، يومئون برؤوسهم موافقين، أو يصفقون بخيبة. هدف المتحدثين يكون المواساة وليس اجترار أي جدال.

في هذه الحادثة بالذات، شرح الخطباء حتمية الموت، وكيف يكون عاقبة ضرورية للولادة، وكيف يحيا الأموات بجيناتهم، فكل إنسان حيّ يقابله ملايين الأموات. أحد المطارنة تحدث عن الخلاص والخلود، مؤكدًا على فكرة أن فعل الخلاص يتضمن الجسد كما الروح. فجأة بادر الفيلسوف مواجهًا المطران: «سماحتك، أرجو عفوك. الحياة مجرد ضرطة في العالم، تأتي فجأة وتذهب بشكل خاطف بدون أي أثر، لا يبقى منها شيء سوى الرائحة».

لم يضحك أحد احترامًا للعائلة المفجوعة، لكن الحادثة صارت تُروى بعد ذلك ويضحك الناس عليها. الخلاص والأبدية ينتميان إلى الثقافة المقدسة أو العليا، أما الضحك فهو حركي كالجنس وينتمي للثقافة السفلى.

خلال بحثي الميداني في بلد الأرز، كنت أُسأَل دائمًا عن الأشخاص الذين أعرفهم. لقد كان لأسماء كبار الشخصيات في البلدة صدًى في النفوس، لكن ذكر أسماء السياسي والفيلسوف والعاشق كان يسبب الضحك ويُوَثّق معرفتي العميقة بالمجتمع المحلي. لقد كانت هذه الأمور نوعًا من المعلومات المشفرة التي يعرفها أعضاء هذا المجتمع فقط. منح ألقاب في هذه الشريحة لم يكن ذا نية حسنة، كان يُقصد من ورائه انتقاد السلوكيات غير المألوفة. فالرجل الذي سمّى ابنه الأول خروتشوف ـ بولكانين كان يُستهزَأ به من خلال إطلاق لقب «السياسي» عليه. وفقًا للعادات، الولد الأول يُسمى على اسم جده.

العاشق أيضًا انتُقِد لأنه تخلى عن عائلته ودينه، والفيلسوف لأنه كان يلقي بحكمته فقط في المكان والزمان غير المناسبين.

بعد تخرجي من الجامعة الأمريكية في بيروت، عملتُ بنصيحة البروفيسور (أور)، الذي كان يدرس الأنثروبولوجيا في جامعة أوريغون سابقًا، وتسجلت في هذا القسم في الجامعة الأمريكية. لقد نصحني هذا الأستاذ بدراسة الأنثروبولوجيا مستشهدًا بقول لـ (هوراس غريلي): «اقصُد الغرب في الصغر، واكبر في وطنك». أعجبتني نصيحته، فقد كنت مأخوذًا بالأفلام الرومنسية الأمريكية وأفلام المغامرات. كان لدي إعجاب كبير بالغرب حتى إنني شاهدت (فيلم ذهب مع الريح) لمرات عديدة. لذا اخترت دراسة الأنثروبولوجيا وقصدت جامعة أوريغون.

تعرفت سابقًا على الكثير من الأمريكيين، المبشرين منهم والأصدقاء والزملاء والمعلمين والأساتذة. التقيت بعدد منهم بين العامين 1958 و1960 عندما كنت أدرّس التاريخ والتربية المدنية وأعمل كمشرف عام على غرف الداخلي في الأنترناشونال كولدج وطالبًا في الدراسات العليا في الجامعة الأمريكية. كنت أحب شخصية الأمريكيين الودودة. رأيت في كلامهم العالي النّبرة تعبيرًا عن الحرية الشخصية بدلًا من كونه تطفّلًا على خصوصية الآخرين.

الأمريكيون في الداخل الأمريكي أقلّ تعايُشًا مع العادات غير الأمريكية من الأمريكيين في الخارج. الأمريكيون في الخارج لا يتبنون مبدأ الانصهار ولا يحملون عبء «المهمة الحضارية»، فهم لا يحاولون تغيير الآخرين حتى يعيشوا أسلوب الحياة الخاصّ بهم. تحضرتُ للذهاب إلى الولايات المتحدة عام 1960. اعتقدت أنني متكيف نوعًا ما مع العادات الأمريكية.

قررت السفر إلى أمريكا بالسفينة. لم يكن سهلًا وداع الأهل والأصدقاء في الميناء، وقد كادت تفوتني السفينة لأن مجموعة من أصدقائي أصرت على

أن نلعب لعبة ورق الشدة لآخر مرة قبل السفر. عندما أبحرت السفينة كان صعبًا علي جدًّا أن أرى جبل لبنان يغرق في البحر، فأطفأت ضيقي بعلبة من السجائر.

محطتنا الأولى كانت في نبلس، إيطاليا. اكتشفت هناك كيف يستطيع الإنسان أن يدرك مجموعة من المعاني من خلال الإيماءات. صعقتُ عندما وجدت أن قلة قليلة من الإيطاليين يمكنهم التواصل بالإنكليزية أو الفرنسية. لا عجب أنهم يُشكّلون كلامهم بكثير من حركات اليد وتعابير الوجه. بعدها، ومن خلال هذه الإيماءات صار بإمكاني السؤال عن المطاعم، المراحيض، الفنادق، الأسعار وحتى كيف أساوم للحصول على أسعار أقل. بعد قضاء عدة أسابيع في نبلس والتي أحببتها كثيرًا، ركبت سفينة أخرى، ليوناردو دافينشي، متوجهًا إلى نيويورك. كم كانت رائعة تلك السفينة!

في ميناء نيويورك تلقيت أول «صدمة ثقافية»: شجار مع موظف الجمارك. عاملًا بنصيحة البروفيسور جورج ويتمان، الذي كان مشرفًا على رسالتي، جمعتُ حاجياتي كلّها في حقيبة كبيرة وشحنتها إلى الولايات المتحدة. كانت الحقيبة تضم، من بين الأمور الأخرى، آلةً كاتبةً مستعملة (والتي تعودت أن أعلم نفسي الطباعة عليها من خلال الضغط على كل الأزرار المنضدة في (قاموس أوكسفورد الإنكليزي للجيب)، آلةَ تسجيل يدوية كان مقبضها يطقطق ويصدر صريرًا في كل مرة كنت أنزع النابض فيها، أوراقًا مطرزةً بحجم مزدوج كانت أمي قد صنعتها وحقيبة فيها جبنة محلية تُسمّى «شنكليش».

الشنكليش كان فخر صناعة الشمال اللبناني، المنطقة التي أتيت منها. لقد كانت تلك الحقيبة هديةً من أخ زوجتي إلى أخ زوجته والذي كان يتخصص في الجراحة العامة في مستشفى كليفلاند. عندما فتحتُ الحقيبة

في ميناء نيويورك ملأت رائحة الشنكليش، والتي كانت موضبة لشهر كامل، المكان. سألني موظف الجمارك: «ما هذا بحق الجحيم»؟

قلت له: «ماذا تقصد بجحيم؟ إنه شنكليش، أكلة فاخرة».

سألني: «شنكليش؟ أتتحدث الإنكليزية ؟»

أجبته: «نعم، بالطبع».

سألني: «ما هو الشنكليش إذًا؟»

شعرت بالارتياح عندما وجه لي هذا السّؤال. شرحت له أن الشنكليش يُصنع من الحليب الذي يتمّ تحويله أولًا إلى لبن، ثم نضع اللبن في جرة كبيرة ونحركه بقوة حتى تظهر القشدة على السطح فنزيلها، وما يتبقى من اللبن نروّبه ونصنع منه (قريشة). الأمر متعب. ثم نجعل (القريشة) على شكل طابات نجففها في الشمس ونحفظها بجرات حتى تتخمّر وتتعتّق. وأخيرًا نقوم بغسلها وغمسها في الزعتر الجاف ثم يكون الشنكليش جاهزًا للأكل.

أحضر موظف الجمارك إبرةً طويلة وتناول طابة من الشنكليش وتذوقها ثم قال بحيرة: «إيه.. إنه جبن».

أصررت على القول: «لا، إنه ليس جبنًا. إنه شنكليش».

ابتسم هو وابتسمتُ أنا لكنني لم أكن مقتنعًا بعد أن الشنكليش هو جبن. في بلدتي (بينو) كنا نميّز بين النوعين، فكنا نقول للجبن (جبنة) وللشنكليش شنكليش.

بعد تحديد ماهيّة الشنكليش، بدأ موظف الجمارك بتفتيش أمتعتي، عندما رأى آلة الكتابة البالية والمسجل اليدوي والأوراق المطرزة اعتقد أنني تاجر تحف ولمّح إلى أنه قد يفرض عليّ رسومًا على استيرادها. لم يمر

وقت طويل حتى اقتنع الموظف بأني طالب لبناني، قادم من أجل دراسة الأنثروبولوجيا في جامعة أوريغون، وأطلعته على أوراقي.

أرسلت الحقيبة الكبيرة إلى أوجين في أوريغون مباشرة، ثم عدت إلى فندق (واي أم سي إي) في نيويورك حتى أخطط لباقي رحلتي. كنت أشعر بالوحدة، فشغلت نفسي بكتابة الرسائل للأصدقاء والعائلة في الوطن. في تلك الليلة، كتبت ما لا يقل عن عشرين رسالة. في صباح اليوم التالي، ذهبت إلى مكتب الاستقبال في الفندق وكنت أحمل الرسائل في يدي. سألت موظف الاستقبال: «مكتب البريد من فضلك، أنا بحاجة إلى بعض الطوابع».

أجابني: «خلف ذاك الباب».

ذهبت إلى هناك ونظرت حولي، لكنني لم أجد مكتب البريد، فعدت لأسأل الموظف من جديد: «أحتاج طوابع لهذه الرسائل. أين مكتب البريد من فضلك».

قال لي: «تمامًا خلف الباب».

نظرت مجدّدًا خلف الباب لكنني لم أجد مكتبًا للبريد أو أي شخص يبيع طوابع مالية. ولكي أتفادى الإحراج الناتج عن طرح السؤال نفسه للمرة الثالثة، قررتُ أن أتناول الفطور أوّلًا. بعدها قال لي موظف استقبال كيف أقوم بشراء الطوابع المالية من آلة بيع بنقود معدنية مثبتة خلف الباب.

قررت الوقوف في أوربانا وإلينويس عوض الذهاب إلى أوريغون بالطائرة، وذلك لكي أزور بعض الأصدقاء الذين كنت أعرفهم من خلال الجامعة. سافرت إلى شيكاغو بالطائرة ومن هناك استقليت حافلة إلى أوربانا. لم أرَ قط مساحات خضراء مفتوحة ولا أفقًا مدورًا تمامًا كتلك التي في ميدويست. كنا وقتها في أواخر آب/ أغسطس وأوائل أيلول/ سبتمبر. امتدت

حقول الذرة اللامتناهية لأميال أمامنا خلال الرحلة. ولمللهم من اللون الرّمادي للصحراء، فإن العرب مسحورون بدرجات الاخضرار، خصوصًا في المشاهد الطبيعية. كتبتُ آنذاك في مذكراتي: «تسمية الغرب الأوسط بحزام الإنجيل ليست مغالطة، فإلى جانب كون تسميته أمرًا دينيًّا، هو شكل من أشكال الإبداع الإلهي».

قضيتُ أربعة أيام في بيت عائلة صديقي، حتى أعايش هذا الاختلاف الثقافي فقط. لقد حاولوا قصارى جهدهم أن يُشعروني أني في منزلي، لكن ذلك لم يكن. لقد كانوا جميعُهم ـ الأب والأم والأخ ـ لطفاء بشكل رسمي معي ما جعلني أشعر أن مكاني ليس بينهم. كانوا يبتسمون كثيرًا، لكنهم لم يكونوا يضحكون. لم ألقِ نكاتًا كما لم يفعلوا هم. أريتهم بعض (الصوَر) من لبنان ومصر وسورية والأردن والأرض المقدسة، وكانوا جميعًا متأثرين فقالوا: «كم هي جميلة!»

استقليتُ حافلة من أوربانا إلى سولت القديسة ماريا في ميتشيغن الفوقا، لأزور لاري نيكولاس، والذي مكث مدة شهر في بينو مع والديّ عندما كان جزءًا من البرنامج المتبادل عام 1955. كانت الرحلة طويلة وقتها، لكنني استمتعت بكل دقيقة فيها، بدأت الصور الحقيقية لأمريكا تظهر: طرق سريعة مرتبة، أعشاب مقطوعة بشكل متساو على جانبي الطريق، خشب التنوب، مياه صافية كالبلور تتدفق بلطف في الجداول وأوراق الأشجار الصفراء والزهرية كانت تغطي الطريق والأشجار بشكل جزئي ـ يا لها من تحفة طبيعية. وقد تذوقت الطعام الأمريكي السريع اللذيذ. في تلك الأيام، كان طلاب الجامعة الأمريكية في بيروت يعتبرون الهوت الدوغ عند مطعم العم سام والذي كان يقع خارج بوابة الجامعة الرئيسية أكلًا فاخرًا، فقد كانت الشاورما والقورمة (سندويشات اللحم المحلية) أدنى مرتبة من الهوت دوغ. اليوم، وعلى ضوء

حملة التوعية الصحية الحالية، يتساءل المرء أي نوع من هذا الطعام السريع أكثر صحة.

كان لاري ينتظرني في محطة الحافلات، حسب الاتفاق. كان شرفًا لي أن أراه مرة أخرى. كنا أنا وهو صديقين حميمين عندما ارتدنا مخيّمًا صيفيًّا في (عين يعقوب)، قرية تقع قرب (بينو) وفيها (كلية بيروت للنساء)، وهي معروفة اليوم باسم الجامعة اللبنانية الأمريكية. كنا نعطي دورات تدريبيّة للطلاب المتخصصين بالعمل الاجتماعي. بشكل عام، كانت الطالبات الإناث في كلية بيروت للنساء ينحدرن من عائلات غنية تسعى أن توفر التعليم الجامعي لبناتها. في ذلك الوقت، كان طالب الجامعة الأمريكية في بيروت محظوظًا إذا ارتبط بمواعيد ثابتة مع كلية بيروت للنساء. ما زلتُ أعيش ذكريات تلك الأيام.

ذلك المخيم الصيفي كان من تنظيم نيل ألتر، مؤسس المدرسة الزراعية التجريبية في (جبرائيل) في عكار، شمال لبنان. كان د. آلتر قد دعا لاري الذي كان زميلًا متبادلًا وقتها لحضور ذاك المخيم حتى يتعرف على الحياة القروية في لبنان. بصفته شيخًا تبشيريًّا، كان ألتر لا يفوّت فرصةً ليقدم مظهرًا من مظاهر المدنية في تلك المنطقة اللبنانية الرجعية، فقد بنى واحدة من أفضل المزارع التجريبية في المنطقة، وذلك بهدف الترويج لتقنيات الزراعة الحديثة. جهود ألتر على مدى خمسة عشر عامًا ذهبت سدًى للأسف عندما تعرضت المزرعة لهجوم خلال تمرد في العام 1958 تمّ على أثره سرقتها وتدميرها. أصيب ألتر بالإحباط لأن تعب حياته قد ضاع، وتوفي بعد ذلك بسنتين عندما كان لاجئًا سياسيًّا في الولايات المتحدة. لكن بعضًا من أهدافه تحقق: فالماشية والنحل والدواجن التي سُرقت من مزرعته كانت نماذج ساعدت على نشر أساليب وطرق الزراعة الحديثة في المنطقة.

زيارة لاري إلى لبنان كان لها أثر كبير على مهنته. فقد تأثر بـدكتور ألتر كثيرًا، وبمجرد عودته إلى ميتشيغن، التحق مجددًا بالجامعة وأكمل دراسة التربية ليصبح أستاذًا ثم مدير مدرسة. في السنة التي تلت زيارتي لميتشيغن، حظي لاري بعمل في أوريغون وتزوج بعدها من فتاة مكسيكية في احتفال عائلي في مكسيكو الجديدة كنت أنا شاهد العريس. بعدها لم أر لاري على مدى أربعين عامًا لاحقًا، عندما زارني مع زوجته في العام 2000 في ريدينغ في بريطانيا. ذهبنا سويّة إلى إيرلندا حيث قضينا أسبوعين لا يمكن نسيانهما. كنا طوال طريقنا نغني أغنيتنا الخاصة: «أنا بشع، حقًّا بشع».

أمضيت ثلاثة أيام مع لاري في ميتشيغن، استقليتُ بعدها رحلة إلى أوجين في أوريغون. على متن الطائرة التقيت بزميل مسافر سألني: «من أين أنت قادم»؟

«من لبنان ـ أرز لبنان، كما تعلم. أنا في طريقي إلى أوريغون لأدرس الأنثروبولوجيا».

وقال بتعجب واضح: «الأنثروبولوجيا! عليّ اللعنة. لماذا الأنثروبولوجيا؟»

أجبته: «إنه علم يتحدث عن أصولنا».

سألني : «هل يمكنك تحديد أصلي مثلًا؟»

في هذه اللحظة، تذكرت كلام د. أور الذي قال إنه في الولايات المتحدة اتجه المهاجرون الإيرلنديون ليصبحوا رجال شرطة وقسّيسين، بينما اتجه الاسكتلنديون ليعملوا في مجال التأمين، الهولنديون عملوا كمزارعين واليهود كانوا تجّارًا. كنت أعلم أن هذا المسافر يعمل في مجال التأمين، نظرت إلى وجهه، تفحصت رأسه متظاهرًا بأنني أقيسه، تمتمت ببضع كلمات وقلت بعدها بشيء من الثقة: «لعلك من اسكتلندا؟»

قال مؤكدًا: «يا يسوع المسيح! أنت تعرف فعلًا».

وصلت إلى أوجين مساءً، بحثت عن البيت العالمي حيث كنت قد حجزت غرفة. كان بيتًا صغيرًا غير معروف، وكان معظم قاطنيه من جنوب آسيا. قررت سريعًا أن أفتش عن مكان آخر بنفسي، عملًا بالمثل اللبناني «ما حكّ جلدك غيرُ ظفرك». في اليوم التالي، أخبرت المرأة المسؤولة عن البيت بنيتي، وقدمت لي هذه المرأة المساعدة وأخذت مني تكاليف الإيجار لليلة واحدة فقط.

ذهبتُ إلى اتحاد الطلبة لأتناول فنجانًا من القهوة. رأيت هناك شابًا من عمري نفسه ينتعل صندلًا وله ملامح عربيّة. اقتربت منه وقلت له: «مرحبًا يا أخي».

بشيء من اللامبالاة إلى حدّ ما، قال لي: «أهلًا، تفضّل بالجلوس»، وهو ينظر إليّ من وراء نظاراته السميكة.

علمتُ أنه قدم من طرطوس، مدينة تقع في شمال سورية وتبعد عن بلدتي اللبنانية حوالي أربعين ميلًا. كما علمتُ أنّنا درسنا في الثانوية نفسها في طرابلس، وأن لدينا العديد من الأصدقاء المشتركين. لكنني عندما طلبت منه أن يُساعدني في إحضار حقيبتي المشهورة من محطة القطار، أبدى عدم رغبة وقال: «أنا لست سائق تاكسي». وعندما سألت عن مكان لإقامتي، نصحني أن أرجع للوحة الإعلانات. نظرت إلى اللوحة ووجدت أن (رون)، طالب من كاليفورنيا: يبحث عن شخص يشاركه الغرفة. في أقل من ساعة وقّعنا على عقد الإيجار مع السيدة (أندرسون) التي طلبت ستين دولارًا في الشهر، على أن يدفع كل واحد منا أنا ورون ثلاثين دولارًا. ساعدني رون على إحضار حقيبتي من المحطة وعلى فك أمتعتي. عندما رأى آلة التسجيل الخاصة بي، ضحك عاليًا.

في اليوم التالي ذهبتُ إلى قسم الأنثروبولوجيا والتقيت بالرئيس (لوثر كريسمان). رحّب كريسمان بي بابتسامة عريضة قائلًا: «اعتقدنا أنك غير قادم».

أجبته: «كيف أفوت فرصة مثل هذه؟ هذا حلمي».

عرض عليّ (كريسمان) المساعدة بأي طريقة ممكنة وكان جادًّا في هذا الكلام. خلال إقامتي في أوريغون، لم يبخل البروفيسور (كريسمان) عليّ بالمساعدة أبدًا. كنت أستعين به كلّما وقعت في ضائقة مادية. كان يأتي إلى مكتبي كل بضعة أيام، يفتح الباب نصف فتحة ويقول: «لدي عملٌ لك. كل ما عليك أن تقوم به هو الضحك».

كنت أجيبه بقهقهة عميقة وطويلة... لقد كانوا يخبرونني أنها تصدر صوتًا كماكينة الخياطة.

كان يقول لي ضاحكًا: «توقف، توقف! العمل لك».

خلال أسبوع، أصبحتُ منسجمًا مع شقتي الجديدة، التي كانت بعيدة نسبيًّا عن القسم الجامعي. تعودت أن أسلك طريقًا مختصرًا أمر من خلاله بمقبرة قديمة. من حظي، لم يكن الأموات في أوجين مخيفين كالأموات في قريتي، لكنني بقيت أشعر بأن هناك أشباحًا تطاردني في المقبرة ليلًا. في قريتي، كانوا يحكون قصةً عن شاب قوي تجرأ على زيارة المقبرة وحيدًا في الليل وأصبح يشكو من اضطراب عقليّ بعد ذلك. لكن ما اعتقدت أنها أصواتٌ لأشباح تحولت لتكون أنينًا للعشاق. يا إلهي! الأمريكيون يمارسون الحب في المقابر. بشكل تدريجي، بدأت أستمتع بصحبة الأموات.

اشتكيت للبروفيسور كريسمان بخصوص السكن. أجرى اتصالًا واحدًا كنت بعده في طريقي إلى مرفق جامعي. استأجرت هناك بيتًا بغرفتي

نوم شبه منفصلتين مقابل أربعين دولارًا في الشهر ودعوت نبيه مارديني، الطالب السوري، ليكون شريكي. كان نبيل رجلًا نبيلًا ومسلمًا متدينًا. علّمني كيف أصلي على الطريقة الإسلامية وكيف أطبخ أطباقًا دمشقية. مع الوقت، اكتشفت أنه عندما تقوم بطبخ القليل من الأطباق، يصبح الباقي مسألة مخيلة فقط.

لم يكن رون سعيدًا بخصوص ترتيباتي الجديدة، لكنه ساعدني على نقل حاجيّاتي من شقة السيدة أندرسون إلى البيت الجديد. لم أكن أعتقد أبدًا أنني سأخسر إيجار ثلاثة أشهر والذي كنت قد دفعته سلفًا، لكن ذلك حصل. لقد وظفتُ كل مهارات الإقناع لدي لكي أجعلها تعيده، متذرّعًا بالإهمال الذي وجدتُه كطالب أجنبي، لكن من دون جدوًى. لم تكن السيدة أندرسون لتتزحزح عن كلامها وتمسكت بشروط عقد الإيجار بشكل حرفي. وقتها، تعلمتُ درسي.

دراسة الأنثروبولوجيا في أوريغون

«!ما أروعها»

الفصل الثاني

في النهاية، حصلت على البيت الذي أردت. أخذت الغرفة التي كانت في الطابق الأرضي وأعدت ترتيبها لتصلح أن تكون غرفة استقبال ونوم في الوقت نفسه. أخذ نبيه الغرفة التي كانت في الدور العلوي. لقد كان منعشًا استعمال ملاءات أمي المطرزة لأول مرة مذ غادرت لبنان. كنت أستطيع أن أشمّ رائحة الصابون الذي كانت تستعمله في غسلها والذي كان مصنوعًا من زيت الزيتون.

خصّصت لي إدارة قسم الأنثروبولوجيا مكتبًا في كوخ يعود بناؤه للحرب العالمية الثانية. كان يقع وسط أشجار التنوب، في مشهد يتفق مع الصورة التي رسمتها في بالي عن شمال غرب الولايات المتحدة.

إلى جانب الكوخ، كان هناك نصب يحيي ذكرى «الرُّواد»، وكان يشرف على الطريق السريع وسكة الحديد غرب المحيط الهادئ. وكان هذا المكان هو الملاذ الذي ألجأ إليه لأعالج حنيني إلى الوطن، والذي كان يصيبني بشكل عرضي، بالاكتئاب المزاجي. كان الطريق السريع يعني لي العودة إلى لبنان، وسكة الحديد كانت عبارة عن «تقليد غربي» ـ ثقافة «الكاوبوي» (راعي البقر) التي أعجبت بها أيام دراستي الثانوية في طرابلس.

ثلاثة من طلاب الدراسات العليا كان لهم مكاتب في الكوخ، لكن أحدًا منهم لم يستخدم تلك المنشأة. الشخص الوحيد الذي كنت أراه هناك بشكل منتظم كان (دون وولف)، وكان كثير الابتسام ويرتاد المكان من وقت إلى آخر، ودائمًا ما يكون ذلك في المساء ويقول لي مرحبًا ويشجعني ثم يأخذ استراحة في ما تبقى من اليوم.

كان كثيرًا ما يُلحق كلامه بـ «اللعنة»، «عليها اللعنة»، «لعنها الله»، «يا للهول،» حتى إنني شعرت أن عليّ أن أروي له قصتي عن الأستاذ هيل، وهو معلم تبشيري أمريكي في مدرسة طرابلس الإنجيلية للبنين في بداية السبعينيات (منذ العام 1976 صارت المدرسة تُعرف باسم مدرسة طرابلس الإنجيلية للبنات والبنين). وقتها، حدثت مشادة حامية بيني وبين زملائي في الصف فيما إذا كان حرف (n) في كلمة (damn) صامتًا أم لا. لجأت إلى السيد هيل وسألته: «سيدي هل حرف (n) في كلمة (damn) صامت؟»

أجابني : «بني، كل الحروف في تلك الكلمة صامتة».

قال دون: «عليّ اللعنة».

كان (دون) يعتقد أنه عاملٌ مُجدٌّ، فقد رفض دعواتي المتكررة إلى البيرة قائلًا: «أنا مشغول، عمل، عمل، عمل». تساءلت كثيرًا هل هو العمل حقًّا أو العمل الوهمي؟ لقد علمت أن (دون) يقضي كثيرًا من وقته بالتأمل بأفكار خيالية. أن تكون مشغولًا في أمريكا، يعني أن يكون وقتك حافلًا وأن تكون منتجًا. أمّا إذا كنت لا تقوم بشيء وأن يكون لديك الكثير من وقت الفراغ فهذا يعني الفراغ والمنزلة المشبوهة في مجتمع بروتستانتي.

ولكوني درست فقط مقررين تعليميين فقط في الأنثروبولوجيا في الجامعة الأمريكية في بيروت، نصحني قسم الأنثروبولوجيا في (أوريغون) بدراسة مقررات في الأنثروبولوجيا الثقافية والفيزيائية، والألسنية وعلم الآثار، بالإضافة إلى عدة مقررات عن المادة والمناطق. من أكثر المقررات التي نالت إعجابي، تلك التي كانت عن إفريقيا والألسنية والدين والتغيير. لقد وضعت شخصيات المدرسين «أضفت الزيت إلى الزيتون» بطريقة حسنت من مذاق كلا الصنفين. في غضون أسبوعين، تعلم زملائي وأصدقائي معظم مفردات الشتيمة باللغة العربية. فكان بعضهم لا يكاد يمر بنا ويفتح الباب في

المساء حتى يشتم بالعربية. وسرعان ما استبدلت «عليك اللعنة» و «يا للهول» بمصطلحات الشتيمة العربية. وفي حين يدل الشّتم في الأماكن العامة في الشرق الأوسط على تربية فاسدة، إلا أنّه يُعتبَر في أمريكا معيارًا للحرية الشخصية والسلوك غير المقيد. [في أمريكا] الحر فقط يمكنه أن يشتم. لا عجب في أنّ النسوية في الغرب اعتمدت الشّتم كأسلوب للتّأكيد على المساواة وحرية التعبير. حتى في لبنان، كانت النساء خلال الحرب الأهلية يستعملن ألفاظًا سيئة أمام العامة في إشارة لكونهن حرات وغير مباليات.

كان هناك شيء فريد في الثقافة الأمريكية، على الأقل كما خَبرتُها في (أوجين) والتي تظهر أفضل ما في الإنسان. تعابير الحماس العفوي كانت رائجة حتى في معظم المناسبات العادية. كنتُ دائمًا أُسْأَل: «من أين أنت؟»

وأجيب: «من لبنان».

ـ«كم هو بديع!»

ـ«ماذا تدرُس؟»

ـ«الأنثروبولوجيا»

ـ«كم هو رائع!»

بشكل عام كانت هذه التعليقات مشجعة. لكن إخباري بمدى عظمة شهادتي عندإحساسي بالإحباط لم يكن ليُساعدني على الإطلاق. ما كنت أحتاجه فعلًا في تلك الأوقات كان لكمة على أنفي. كما رأيت، يتفوه الأمريكيون بهذه الإجابات بشكل اعتيادي، كمحطات في الكلام. هم لا يقصدون أن الشخص الذي يتكلمون معه هو فعلًا «بديع»، «جميل»، أو «رائع». باختصار هم يقصدون «تابع»، «أنا هنا، أصغي إليك»، «من الجيد أن أعرف ذلك».

بعض العرب كانوا يأخذون هذه الأجوبة السطحية على محمل الجد وبالتّالي يردون عليها بأجوبة غير مناسبة.

أذكر أنه كان هناك طالب من (بيرزيت) من فلسطين، فسر هذا الطالب ابتسامة امرأة له على أنها دعوةٌ لإقامة علاقة، تمامًا كما يتمّ تفسير هذه الأمور في الثقافة العربية. في الجامعات الأمريكية، كانت الابتسامة ببساطة طريقة لقول «مرحبًا» وللدّلالة على التّهذيب.

في الجامعة الأمريكية في بيروت، كان هناك طالبات أمريكيات يرتدن الجامعة لفترات قصيرة فقط. في البرنامج التدريبي، كان يُقال لهؤلاء النساء أن لا يبتسمن لأشخاص لا يعرفنهم بشكل شخصي، لأن الابتسامة للأغراب غالبًا ما تؤدي إلى التحرش.

على عكس الثقافة العربية التي كانت تميل لقمع الإبداع، كانت الثقافة الغربية تسعى لتعزيز الشخصية الفردية للإنسان. الفكرة المتألقة في الثقافة العربية يتمّ احتقارها على أنها «بدعة»، ويتمّ نبذ هذا الشخص على أنه «فيلسوف». في شبابي، حذروني تكرارًا من أنه يجب عليّ الخوف من «لسان الناس» والامتثال للعادات والامتناع عن تحدي الوضع القائم. اذا التزمت البشرية بهذا المنطق، لكنا لا نزال نعبد الأشجار، نسافر سيرًا على أقدامنا، ونصطاد الحيوانات ونجمع البراعم.

الفرق بين الثقافتين العربية والأمريكية ليس صعب الشرح. في الثقافة العربية، وكما قلت في كتابي الخيم والأهرامات، الدافع الوحيد في مجال معين من التفاعل هو التغلب على الخصوم، وبالتالي التركيز على مراقبة ضعفهم. أما في الثقافة الأمريكية المحكومة بقوى السوق، فالدافع هو زيادة

«الربح»، وبالتالي، التركيز يكون على تحديد نقاط قوة الشخص وماذا يستطيع أن يُقدّم.

أمريكا حررت العالم من عقدتين تتعلق بملابس الرجال: اللون والإجراءات الرسمية. كنت فخورًا بالملابس التي أحضرتها معي من لبنان. كنت في بادئ الأمر أذهب إلى الجامعة مرتديًا بزة داكنة أو رمادية، ربطة عنق، قميصًا أبيض، جوارب داكنة وحذاءً ملمعًا بشكل جيد. كان زملائي يظنون أنني أذهب إلى حفل خطوبة رسمي في كل يوم. لكنها لم تأخذ معي وقتًا طويلًا حتى تعودتُ على الوضع الجديد. أول ما استغنيت عنه، كان ربطة العنق، تبعها الحذاء الجلدي ثم البنطال والسترة الداكنين. استبدلت هؤلاء ببنطال (جينز) أزرق، جوارب قطنية بيضاء، أحذية خاصة للمشي، سترات رياضية وقمصان ملونة. لكن الإجراء غير الرسمي الوحيد الذي لم أتحمله هو أن تتمّ مناداتي بـ (فريد) أو (فريدي) بدل فؤاد. لم أكن أمانع أن ينادوني بـ (فاد)، خصوصًا وأن عددًا من أعز أصدقائي لم يكن يجيد لفظ اسمي. لكن (فريدي) كانت أكثر بكثير من قدرتي على تحملها، لم تكن تناسب شخصيتي أو كوني عكاريًّا.

جو الصف في (أوجين) كان مريحًا جدًّا. كان الأساتذة يبتسمون ويمزحون ويضحكون. لم يتظاهروا بأنهم يتعاملون مع الحقيقة ووقائع الحياة المطلقة. تحدثوا عن الثقافات الأخرى بتأثر، مؤكدين في الوقت نفسه على عالمية ونسبية المعتقدات والممارسات الإنسانية. مع أن كل المجتمعات الإنسانية لها ديانة ولغة وموسيقى ورقص، أيضًا فإن كل مجتمع له منظومته الخاصة من المعتقدات والأصوات اللفظية والأشكال اللغوية بالإضافة إلى النبرة وحركات الجسد. من أجل معرفة قيمة الأنثروبولوجيا، على المرء أن يفهم براعة الإنسان في صنع مخزون كبير من الممارسات والمعتقدات المختلفة بطبيعتها.

أدائي في الفصل الأكاديمي الأول كان ممتازًا: حصلت على الدرجات

العليا في جميع مقرراتي، وهكذا كان المستوى في السنتين التاليتين. لكن الحياة ليست عبارة عن دراسة فقط: «يومٌ لك ويومٌ لربك»، كما نقول في لبنان. تقريبًا جميع الطلاب الخريجين الآخرين في قسم الأنثروبولوجيا متزوجون، وبعضهم لديهم أطفال. حفلاتهم، والتي يُكتب على دعواتها «أحضر شرابك الخاص معك»، كانت في أغلب الأحيان امتدادًا للصفوف: نقاشات جادة، تبادل أفكار في مختلف مواضيع الأنثروبولوجيا، بالإضافة إلى أخبار الأقسام الأخرى والقيل والقال. قلت «في أغلب الأحيان» لأن هذه الحفلات كانت تخرج عن نطاق السيطرة في بعض الأوقات، فكان المشاركون يرمون البيرة وفطائر القشدة على رؤوس بعضهم. لم أكن أستمتع بفعل ذلك كما لم أكن أستمتع بأن يُفعل ذلك بي. لم أكن أرى أن هذا الفعل مضحكًا، كما لم أفهم معنى الضحكات التي كانت تتبعه. حضرت بعض هذه الحفلات وفي الواقع أقمت بعضًا منها عندي ـ كانت تكلفتها أقل من تكلفة المطاعم وأكثر متعة ـ لكن ليس ليل السبت ـ الأحد، لأن تلك الليلة كانت للمتعة الخالصة.

كمدينة مكتظة، كان في (أوجين) الكثير من الملاهي الليلية الهائجة والصاخبة. أغلب النساء اللواتي كن يرتدن تلك الملاهي من دون شريك كن في منتصف أعمارهن. كن مطلقات أو منفصلات أو أرامل أو لديهن شيء من المشاكل الزوجية. الكثير من الطلاب العرب كانوا يرتادون هذه الملاهي، وبعضهم كان كثيرًا ما يُهان بشكل شخصي عندما كان طلبه للرقص يُرفض بشكل لطيف من قبل إحدى النساء.

لقد زرت هذه الملاهي الليلية برفقة أصدقائي، لكنني عندما وُفّقتُ بصديقة صرتُ أذهب إلى أماكن أكثر «رقيًّا» تقدم الطعام والشراب والرقص (فوز، وكان مطعمًا صينيًّا، كان له الحصة الأكبر من زياراتي).

لا يهم كم حاولت جاهدًا أن تبني طرقًا جديدة. بعض العادات التي

اكتسبتها في عمر صغير وهي مرتبطة بشكل أساس بالطعام واللغة والجنس، بقيَت على حالها. تذوق الطعام يُكتسب في عمر مبكر لدرجة أن كل إنسان يعتبر أن أمه أفضل طباخة. كذلك الأمر بالنسبة إلى اللغة: لأنه ليس هناك حرف p في اللغة العربية، العديد من الطلاب العرب كانوا يجدون صعوبة في لفظه، وكانوا عن غير قصد يستبدلونه بحرف b فيقولون «بيرهابس Perhaps» و«بروبابلي Propably». وبالنسبة لنظرة العرب إلى الجنس يمكننا أن نقول الكثير: أي إظهار علني للحب من قبل المرأة كان يُعتبر إهانةً لشرف الرجل. اشتكى لي مرةً تاجر سجاد عربي في (بورتلاند) في (أوريغون) قائلًا: «مشكلتي الكبيرة في ابنتي. يا إلهي، لا أعلم ماذا سأفعل إذا أتت في أحد الأيام وقالت لي: أبي أنا واقعة في الحب».

بعد مضي ثلاثة أشهر شعرت أنني أمضيت وقتًا طويلًا جدًّا في أمريكا. الأمريكيون وخاصة أولئك العاملين في المجال الأكاديمي، يميلون ليستوعبوا الأجانب من دون تحفظ كبير أو تردد. يجعلونك تشعر أنك في بيتك مهما كانت خلفيتك الثقافية. الإفريقي والعربي واللاتيني، لا بدّ لهؤلاء الأجانب من أن يجدوا بعض الألفة في الأوساط الأمريكية. أمريكا تعني ثقافة المهاجرين، يصاحبها شعور قوي بالهوية الوطنية. ليست كل الشعوب فخورة بهويتها كالأمريكيين. لا تنخدع بالتنوع الظاهر بالطعام على سبيل المثال: البيتزا والتاكو والكبب والتشومين في مطاعمهم، كلها أطباق أمريكية مئة بالمئة. إذا كنت تتحدث الإنكليزية بطلاقة أو بصعوبة أو بشكل سيئ، تعتبر واحدًا منهم. إنه مجتمعٌ يستوعبك في البداية ثم يعمل شيئًا فشيئًا على تأقلمك. وذلك بأن يجعلك في الأصل فخورًا بتقاليدك الخاصة.

الكثير من الطلاب العرب الذين صادفتهم في (إيجون) ادعوا بأنهم شيوخ أو أبناء شيوخ، على كل حال، عرّفوا عن أنفسهم بهذا الشكل للناس،

وخاصة لزميلاتهم في الكلية. لم أكن أعلم أن هناك الكثير من الشيوخ في العالم العربي، يعود بعض ذلك إلى أن كلمة شيخ العربية كانت تلفظ «شيك» في المجتمعات الغربية. الوافدون الجدد من العرب كانوا وحيدين ويميلون لانتقاد العادات الأمريكية بشكل كبير، سرعان ما كانوا يقولون: «في بلادنا نقوم بهذا الأمر بشكل مختلف».

ويكون الرّد: «أوه، كم هذا جميل».

الطلاب العرب لم يكن ينقصهم الجمال، كما لم يكونوا انطوائيين، كانوا ببساطة غير مرتاحين، خصوصًا بالتعاطي مع الجنس الآخر. في تفاعلهم مع النساء، كان العرب يظهرون الخجل الممزوج بالشهوة، الأمر الذي كان يجعلهم يحبسون كلماتهم. البعض كان يتردد في دعوة الفتيات إلى الرقص خوفًا من رفض طلبه. الرد السلبي من قبل المرأة يمكن أن يُؤخذ كتحد لرجولتهم وإهانة لكرامة العرب. مراحل التودد في الثقافة العربية تبدأ بنظرة ثم بسمة، كما يقول أحد الشعراء. لكن عمليًا، هذا التفضيل في أن يكون التقارب بالعيون أولًا كان غالبًا ما يُفسّر على أنه تحديق، الأمر الذي يخلق نوعًا من الكراهية.

خارج الصف، كان الجنس النشاط الذي يشغل الطلاب العرب الذكور ـ فتيات وفتيات والمزيد من الفتيات. لم يكن لديهم شغف بالرياضة أو المسرح. لم يكن سهلًا إرضاء عادة الكبت والحرمان الجنسيين من خلال لقاءات جنسية دورية. يبدو أن الفصل الجامد بين الجنسين في العالم العربي والإسلامي قد خلق عطشًا جامحًا للجنس. بحكم التجربة، كان جميع الطلب العرب يمارسون الجنس، لكنهم كانوا غير مبالين بالزواج، الذي يعتبرونه التزامًا طويلًا.

مال الأمريكيون في الستينيات لأن يعالجوا مسألة الجنس قبل الزواج على أنها جزء من علاقة أكثر شمولية يُفترض بها أن تؤدي إلى الزواج، أو

كانوا يقولون ذلك على كل حال. بالنسبة للطلاب العرب في ذلك الوقت كان الجنس مرحلة عابرة. لكن حتى لو كان الشعور متشابهًا، يختلف العرب والأمريكيون من حيث طريقة التعبير عن الحب. بينما يستخدم الأمريكيون عبارة «أحبك» لمرات عديدة في جلسة رومنسية واحدة، يعتقد العرب أن هذا التكرار يُفقدهم شيئًا من رجولتهم. نعم، إننا مكبوتون. لطالما اشتكت زوجتي وقالت: «الحب يحتاج أن يتغذى».

في الغرب المسيحي، الثنائي يتألف من الجنسين، أو على الأقل عليه أن يكون كذلك من الناحية الأيديولوجية. الجنسان يتشاركان الرقصات والحفلات، الزيارات والسفر، الدراسة والعمل، وما إلى ذلك. الثنائية هذه قد تتضمن الحب أو ببساطة الصحبة الاجتماعية. وبسبب هذا الاقتران، تسود في الغرب فكرة أن الحب والمضاجعة يكونان معًا أو يجب عليهما أن يكونا كذلك. متزوجان أم لا، الشريكان يتخاصمان على جعل الاثنين (الحب والجنس) يتفقان. من الواضح أن الشريكين لا ينجحان دائمًا في ذلك فالدوافع تختلف، والجنس شيء والحب شيء آخر.

في الثقافة العربية، كل جنس لديه مجال نشاطاته الخاص ـ عالم الرجال منفصل عن عالم النساء. لأن الجنسين يبقيان منفصلين، الحب والجنس يحتاجان أن لا يكونا معًا. في الواقع، المفردة العربية التي تستعمل للتعبير عن الجنس (جماع)، تدل على أن الشريكين يكونان معًا ولكن من دون تضمين الحب. الإنسان، رجلًا كان أم امرأة قد يستمتع بالجماع بدون حب وقد يحب من دون أن يسعى للجنس. الحب بدون جنس يُطلق عليه في العربية «الحب العذري» ويتجسد بالأسلوب الرومنسي للشاعر الشهير جميل وحبيبته بثينة. الذكور العرب يحبون المضاجعة ويكرهون الحب. المضاجعة تعني القوة والقدرة والذكورية. بينما الحب يعني الأنوثة والضعف. حتى عندما

يكونون واقعين في الحب، يميل الرجال العرب لينكروا ذلك. الذكور العرب ممّن عبر عن حبه في العلن أصبح معروفًا باسم حبيبته، كما حدث مع قيس وليلى. «قيس، الرجل الذي وقع في حب ليلى». حبُّه لها جلب له لقبًا سبق جذوره القبلية، الأمر الذي يكون مصدرًا للإهانة في جزيرة العرب. قال لي أحد المقاولين مرة: «بعد أن كسبت أول مليون، ذهبت إلى أوروبا وقضيت عشرة أيام برفقة مرافقيّ».

سألته: «لماذا مرافقوك»؟.

أجابني: «إنهم يُريحونني من عذاب الحب».

الرجال العرب يقعون في الحب، لكن حبّهم يكون لبلدهم، وطنهم الأم، أمتهم، مسقط رأسهم، عشيرتهم أو قبيلتهم، ولا يكون للمرأة. فقط الصوفيون المتمردون وقعوا في حب المرأة. لكن ذلك كان تجربة جمالية. لقد أدركوا وحدانية الله في ثلاثة مدارك: الحب، العاشق والمعشوق، وكانوا يرون ذلك في الخمر والنساء. الأدب الفلسطيني الحديث يصف الوطن في الشعر والنثر على أنه «المعشوق»، «الحبيبة»، «المغتصبة»، و«المدنسة» ــ كلمات تحمل بوضوح صورًا جنسية.

أسلوب العرب في الحب، الحب المثالي، هو طريق باتجاه واحد، شرف النساء. من يُعاين بدقة الأدب العربي عن الحب، سوف يجد أن الرجال هم هدف الحب وأن النساء هن موضوعه. لكن، عند المضاجعة تكون هذه الأدوار معكوسة. بكلمات أخرى، النساء يعشقن والرجال يمارسون الجنس. وهذا واضح في الشخصيات الكلاسيكية مثل عنترة بن شدّاد العبسي، عمرو بن كلثوم وعمر بن أبي ربيعة. تُركز أشعارهم على مآثر الرجال وعلى الجمال الجسدي للنساء. في كتاباتهم، الرجل العاشق يُصوّرُ على أنه المحارب والقاهر والفارس الشجاع، سيد الفروسية، حامل السيوف والرماح وقاهر العدو. في المقابل، تُصوّرُ المرأة

على أنها صاحبة العنق الممشوقة والخدود الوردية والأسنان اللؤلؤية والعيون البراقة والتنشئة الحسنة. عنترة، الشخصية الأسطورية المحببة لدى العرب لشهامته، يخاطب حبيبته في الملحمة الشهيرة: «أتمنى بالله أن أبرئك من داء حبي»[1]. بكلمات أخرى، كانت تحبه بجنون، وصل بها إلى حد المرض، وكان وحده يمتلك الدواء الشافي. أحبُّ أن أطلق على هذه المتلازمة من السلوكيات والمعتقدات التي تركز على الاختلافات الجنسية «عقدة عنترة».

عمر بن أبي ربيعة، شاعر كلاسيكي، يصف نفسَه بأنه رجل يسحر النساء ويذهلهن من النظرة الأولى. في الحب، كان متجليًا كالبدر في ليلة اكتماله، لم يكن يستطيع إخفاء نفسه. وفي هذا السياق، كان الراحل نزار قباني، والذي يعتبره كثيرون في العصر الحديث أمير شعراء الحب، كان يرى نفسه «محطم الفخر الذاتي للنساء» أي عذريتهن. مآثر الرجال هي بالضبط مصدر إعجاب النساء وحبهن. وبما أن هذه المآثر غالبًا ما تستلزم العنف في الظاهر، يكون فعل المضاجعة من بعدها عنيفًا أيضًا. لا عجب أن المضاجعة عادةً ما يُلمّحُ إليها بأفعال مثل «قرط»، و«خزق» و«نسف» و«فقع». حتى إن بعض الرجال يسعون للانتقام من خلال الزواج بفتيات ضد رغبة آبائهم أو إخوانهم ـ فيكون زواج الحقد. الشاعر الراحل وديع ديب، والذي كان يعلم قواعد اللغة العربية لسنوات في بروت، يرى أن كل الأفعال المتعدية ـ والتي تتجاوز فاعلها إلى مفعول به ـ يمكن استعمالها فهي تتضمن معاني جنسية.

النساء في الشرق الأوسط يجسدن مضمون عنترة وازدواجية المعايير التي يتضمنها: الرجال هم المفعول بهم فيما يخص حب النساء، والنساء هن المفعول بهن فيما يخص شرف الرجال. هم يعرفون أن هذه المعايير

(1) نسب د. فؤاد إسحاق الخوري بيت الشعر هذا إلى الفارس العربي عنترة بن شداد العبسي، وقد عرّبناه حرفيًّا إذ لم نجد في ديوان عنترة أي بيت شعر يدلّ على المعنى المنقول. [المترجم].

المزدوجة تولد تصرفات جنسية متناقضة، والتي بدورها، عند فرض قوانين جنسية قاسية على المرأة، تجنح لتكون أكثر تساهلًا فيما يتعلق بمآثر الرجال الجنسية. الكثير من النساء يسعين للالتزام بهذه القوانين لكنهن لا ينجحن في ذلك دائمًا. بشكل عام، النساء يصبرن على تعدد علاقات أزواجهم غير الشرعية طالما أنها تبقى في السر ولا تكون مع امرأة واحدة خاصة. عندما تصبح هذه العلاقات في العلن، تأخذ القضية منحى آخر. بالطبع النساء الغربيات لم يتربين على أسلوب عنترة وقيس الجنسي، لديهم إنجيلهم الخاص.

مضى ثلاثة أشهر على مجيئي إلى (أوريغون) وكل شيء كان جيّدًا بالنسبة لي إلى حدّ ما. أتى عيد الميلاد عام 1960 وكان المجمع خاليًا بكل ما للكلمة من معنى. فالطلاب ذهبوا ليقضوا العطلة مع أهلهم. ولأنني كنت أشعر بالوحدة نوعًا ما، خططتُ لزيارة عمّ أمي في (سان فرانسيسكو)، نعمان الخوري، الذي سافر إلى الولايات المتحدة عام 1928. رسائل أمي تركت لدي انطباعًا أن عمها رجل غني، وأن لديه رغبةً في أن يلتقي بي.

فكّرت أنه إذا كان غنيًّا فعليّ أن لا ألعبها بشكل رخيص. فقمت بشراء تذكرة سفر (اتجاه واحد) بثمانين دولارًا، وكلي أملٌ أنه سيعوّضُ عليَّ ويشتري لي تذكرة العودة. استقبلني في المطار كما كان مخطّطًا، وأخذني إلى منزله في (لافاييت)، بلدة صغيرة تبعد حوالى خمسة وأربعين ميلًا إلى الشرق من (سان فرانسيسكو). كان منزله يتألف من ثلاث غرف نوم في طابق واحد ويقع على أطراف تلة صغيرة. كانت لا تظهر عليه مسحة الثراء. عندما دخلنا نادى العم: «تعالي يا جودي واستقبلي ابن العم». «إنها عطية من الله،» تمتمتُ وقلت في نفسي: «إنها ابنته، لا بد أن تكون من عُمري.» لكن جودي كانت جروًا صغيرًا، ركَضَت إليَّ بحيوية وهزت ذيلها. يا لها من خيبة!

قضيت عشرة أيّام في (لافاييت)، زرت (سان فرانسيسكو) ثم عدت

إلى (أوجين) بالباص. في يوم سفري، أخذ العم نعمان بيدي وقادني نحو غرفة نومه. فتح خزانة ثيابه وسحب مجموعة من ربطات العنق القديمة الطراز. كانت ربطات العنق عريضة وبألوان برّاقة، وتعود لأيام الأربعينيات والخمسينيات. «خذ، اختر ما يُعجبك»، قال لي.

«عمي، أنا طالب جامعة، ونادرًا ما ألبس ربطات عنق. وعندما أقوم بذلك ألبس تلك الضيقة منها، مثل هذه». وأشرت إلى ربطة العنق التي ألبسها.

بخيبة واضحة، وضع يده على جيبه وسحب منها ورقة الخمسة دولارات ليضعها بعد ذلك في يدي. ثم قال بشكل لافت للنظر: «خذ، اصرفها! عش بشكل لائق! واستمتع بحياتك».

هدية العم «الغني»، والتي قبلتُها حتى لا أجرحَ مشاعرَه، بالكاد غطت ثلث ثمن تذكرة العودة إلى (أوجين) بالحافلة. لكن، وفي حين أن العم لم يكن غنيًّا، كان ابنه كذلك. (نعمان جونيور) كان عمدة (لافاييت)، وكان يشغل شركة مباحث خاصة يبلغ عدد موظفيها حوالى الأربعين. كان يعيش بترف في قصر فخم مع حمام سباحة وسونا وطاولة بلياردو بالإضافة إلى غيرها من وسائل الراحة. من حسن حظي أن صور الأماكن التاريخية والدينية والقرى والمناظر الطبيعية في لبنان وسورية ومصر والأردن والقدس كانت معي. أكثر ما نال إعجاب (نعمان جونيور) هي صور قرية والده، جبرائيل، الواقعة شمال لبنان. كان متشوقًا ليعرف عن بيت جده، والحي الذي عاش فيه، ممتلكاته وتفاصيل أخرى، بشكل مختصر، ليعرف عن أصله. عندما علم من يكون، قال: «والدي نعمان، وأنا نعمان جونيور ولدي نعمان الثالث وسوف أرى إذا كان ابني سيسمي ابنه نعمان الرابع»!

كنت سعيدًا بعودتي إلى (أوجين)، والتي في الواقع كنت قد بدأتُ أُقدّرُها بعمق. عندما عُرض عليّ في العام القادم مركز في قسم الأنثروبولوجيا

في إحدى أكثر جامعات (كاليفورنيا) المرموقة، في (بيركلي)، اخترت أن أبقى في (أوجين) الودودة. لقد أحببت مطر (أوريغون) اللطيف.

مجموعة الصور التي أريتُها لعائلة عم أمي تحولت بشكل تدريجي إلى معرض عن الشرق الأوسط. وكنت أريها دائمًا للأصدقاء وفي النوادي والكنائس والتجمعات. «معرض صور الأرض المقدسة» أكسبني بعض المال، لكنه كان متواضعًا أمام الصحبة التي حصلتُ عليها في الجامعة.

بدأت بتطوير اهتمام عميق بثقافات صحراء إفريقيا الوسطى. إفريقيا الغربية لم تكن غريبة إلى حدّ كبير. لقد عرفت عنها من خلال العدد الذي لا يُحصى من المهاجرين اللبنانيين من بلدتي والبلدات المجاورة الذين ذهبوا إلى هناك سعيًا وراء الثروة. (غينيا)، (موبتي)، (بواكيه)، (فريتاون)، (مونروفيا) والكثير من أسماء المدن والبلدان التي كانت في الأصل مألوفةً لدي. أتذكر عندما كان جيراننا يثرثرون بشكل غير مفهوم كلما كانوا على خلاف. لاحقًا، اكتشفتُ أنهم كانوا يُقسمون على بعضهم البعض بـ (الهوسا)، اللغة المشتركة بين دول غربي إفريقيا.

بعيدًا عن الشخصية الجذابة للبروفيسور (فيرنون دورجان)، الذي كان يعلم عن الثقافات الإفريقية لسنوات في جامعة (أوجين) الذي لم يوفر فرصة إلا وقهقه وضحك على نكتة. بعيدًا عن هذا البروفيسور، بُهرت بالعادات الإفريقية والممارسات الاستوائية. وهذه القبائل والشعوب كانت تثير لدي فضولًا استثنائيًّا:

الـ (هيهي) في تنزانيا، والذين كانت نساؤهم تتجمهر حول الزوج صعب المراس وتربطه بجذع الشجرة، ثم تقوم بفضحه على سوء تصرفه. وجزء من هذه العادة أن تقوم هذه النساء بالتبول عليه. تبول النساء على الرجال أمام العامة ــ كنت أعتقد أن ذلك المشهد ممتع.

الـ (تيف) في نيجيريا، والذين كانوا يقاربون الزواج بطرق تقدمية، ويكون آخرها ولادة طفل: «إذا اشتريت بطيخة، تأكد مما بداخلها»، كما تقول الحكمة اللبنانية.

الـ (تالنسي) في غانا، والذين كان الأسبوع عندهم عبارة عن أربعة أيام، ما يعني أن لديهم عطلة نهاية الأسبوع كل أربعة أيام ـ توصية رائعة لمجتمعات صناعية تعاني من نسبة عالية من البطالة.

الـ (أزاند) في السودان، والذين يبقون أعينهم على قوة الآخر السحرية ـ المادة والشر والقوى التي تظهر عند الإنسان بشكل لا إرادي بحيث يتأذى الآخرون. لدى الأزاند معرفة عملية بالأحداث لكنهم كانوا يتساءلون عن اللغز وراءها. كانوا يعلمون أن الكوخ يسقط عندما تتعفن أعمدته الخشبية. لكن لماذا يسقط الكوخ عندما يكون أحد الرجال جالسًا بداخله دون آخر؟ هذا هو لغز السحر.

الـ (بيجماليون) في غابة (إيتوري) في الكونغو (زائير بين 1965 و1979). وكان الواحد منهم يذهب إلى الغابة ليرقص وحيدًا تحت ضوء القمر كطريقة للتعبير عن الفرح. في لبنان، نقول للشخص الذي ينجح بشكل غير متوقع: «اذهب وارقص في الظلام»، فهو الوقت الذي تسقط فيه كل الأقنعة التي يلبسها الإنسان.

الأسلاف هم الصورة المؤكدة للحياة «الأبدية». حقيقةً، عندما أفكر بالموت والخلاص والحياة الأبدية، أفكر بأجدادنا وجدّاتنا، آبائنا وأمهاتنا، أبنائنا وبناتنا، أحفادنا وحفيداتنا ـ بكلمات أخرى، أفكر بالأسلاف والأحفاد، الذين هم بدورهم سيكونون أسلافًا. ككلّ أنواع الملذات ـ الأكل والشراب والجنس ـ الخلاص له بعدٌ بيولوجي : الاستمرار الجيني. مع نهاية عامي الأول في جامعة أوريغون، أصبحت متآلفًا مع الدراسات الإفريقية إلى حدّ كبير. تبين

لي أن الكثير من عمداء قسم الأنثروبولوجيا عملوا على إفريقيا، في حين أن قلة منهم بحثوا في الشرق الأوسط، المنطقة التي نالت اهتمامي في البداية. في الجامعات الأمريكية والأوروبية، الأولوية في دراسة منطقة الشرق الأوسط للغات والأديان والتاريخ وما قبل التاريخ. قررتُ أنه من خلال دراستي لإفريقيا سوف أضرب أكثر من عصفور بحجر واحد. أولًا الأدب عن إفريقيا قدم لي نواةً صلبةً عن المنهج والنظرية في الأنثروبولوجيا. ثانيًا، يعيش حوالى مئة ألف مهاجر لبناني في غرب إفريقيا، ما يعني أنه يجب أن يكون هناك بعض المصالح الرسمية بالشؤون الإفريقية في لبنان. ثالثًا: إفريقيا تضم ثقافات ممتعة. رابعًا: كنت سوف أعمل مع بروفيسور أحبه. خامسًا: كنت سوف أقرأ بعضًا من أدب الأنثروبولوجيا باللغة الفرنسية، الأمر الذي كان ليساعدني على النجاح في امتحان اللغة الفرنسية، وبالتالي إتمام المقررات لدراسة الدكتوراه. وكان ذلك، فبدأت بالتركيز على إفريقيا.

في بداية حزيران/يونيو تمّ هجر المجمّع (الجامعي) مجدّدًا عندما ذهب الطلاب إلى عطلة الصيف. قررت الذهاب إلى فنزويلا، حيث هاجر أخي الأكبر سليم ليقوم بأعمال تجارية هناك (أو ليمارس وطنيته، كما سأشرح في الفصل التالي). سان فرانسيسكو كانت المكان الأقرب إلى أوجين الذي أستطيع فيه أن أحصل على تأشيرة. نصحني القنصل الفنزويلي هناك أنه عليّ كلبناني أن أحصل على تأشيرة من السلطات المختصة في كاراكاس أولًا. تواصل كلٌّ من القنصل وأخي مع كاراكاس لطلب الفيزا التي اعتقدنا أنها لن تأخذ أكثر من بضعة أيام لتصدر. مضت هذه الأيام ولم يأت أي جواب. فكرتُ أن انتظار الرد في شقتي في أوجين سيكون أقل كلفة عليّ من أن أتصل بعم أمي في (لافاييت) وأبقى عنده. لم يأت أي رد من كاراكاس، سلبًا أم إيجابًا، فانصرفت عوضًا عن ذلك إلى الصيد، السباحة، قراءة الأنثروبولوجيا بالفرنسية وتعليم العربية.

أوريغون واحدة من أكثر الأراضي التي خلقها الله جمالًا. أشجارُها، بحيراتها، أنهارها، جبالها، فوهات براكينها، أوديتها، شواطئها ورمالها، كل هؤلاء لا يُضاهون. يا لها من لمسة طبيعية رائعة. لكن الشيء الوحيد الذي يفوقها روعة أن الأوريغونيين من أطيب الشعوب الذين التقيتُ بهم.

من أجل أن أدعم مدخراتي المتواضعة، قمت بتدريس العربية لثمانية طلاب. وحتى أكون بمستوى التسويق الأمريكي، استعرضت خدماتي ـ «تعالوا وتعلموا العربية لقاء ثمانية وتسعين سنتًا» ـ وأخذت من كل طالب ثمانية وتسعين سنتًا مقابل ساعة تدريس واحدة. خلال ذلك، بنيت علاقة جيدة مع إحدى الطالبات، التي علمتني أن أقدر الكلاب والأحصنة. كنت أساسًا أحب الأحصنة، لكن الكلاب، لم أكن متأكدًا من ذلك. العرب يعتقدون أن الكلاب نجسة، وأن المياه التي يقرب منها الكلب تصبح غير صالحة للوضوء الذي يُطهر الجسد قبل الصلاة. لكن عندما بدأ كلب الطالبة، وكان كلب حراسة ألماني كبير، بالترحيب بي بحرارة، كان عليّ أن أغيّر رأيي. لا أنسى مواجهتي مع هذا الكلب صيف عام 1961، عندما ذهبت سيدته لتفتش عن كتاب في مكتبة الجامعة. بقيت وقتها أنا والكلب خارج المكتبة. ظلَّ الكلب جالسًا بصمت على بعد ياردين مني وكان ينظر إلى مدخل المكتبة. حاولتُ أن ألفت انتباهه أو أن أجعله يقترب مني، لكنه لم يتحرك، ونظر إليّ نظرة استنتجتُ أن مفادها: «انسَ الموضوع». مستشعرًا الإحباط نوعًا ما، قررت إخافته بعض الشيء. انحنيت إلى الأمام والتقطت غصن شجرة صغير، ثم رفعت يدي موحيًا أنني سأقوم بضربه بالغصن. بالنسبة للكلاب في العالم العربي، فإن هذه الحركة تجعلهم يهربون. لكن هذا الكلب وقف ثابتًا، رفع أذنيه، سوّى ذيله وركز نظره عليَّ. عندما رميت الغصن خلفه ركض والتقطه ثم أحضره إليّ وهو يحرك ذيله بحماس. أخذت الغصن وربّتُّ على رقبته، ثم أصبحنا أصدقاء.

في الثقافة العربية، يحاول الرجل أن يسيطر على الطبيعة والمخلوقات، ومن بينهم أقرانه الرجال، من خلال استعمال القوة البدنية الكاملة. الطريقة لترويض الحيوانات هي أن تجبرهم على الطاعة لا أن تصاحبهم. وهذا ما يفسر لماذا تكون الحيوانات في الشرق «المتوحش» خائفة جدًّا ــ من الإنسان ومن الحيوانات الأخرى. الكلاب والهررة، والتي من المفترض أن تكون حيوانات أليفة متمدنة، تهرب عندما يقترب منها الغرباء.

في السنة الأكاديمية التالية، 1961 ــ 1962، ركزت على الأنثروبولوجيا في إفريقيا وعلى الدين والتغير الاجتماعي والثقافي ــ ثلاثة مواضيع نالت اهتمامي. ولكي أرضي توقعات القسم الجامعي عندي كان عليّ أن أقرأ أيضًا بعضًا من الأدب عن الثقافات الأمريكية الهندية. قرأت عن (الهوبي) و(النافاجو) و(الأباتشي) و(الإلنوا) و(الإروكوا) و(الأثاباسكا) والكثير من القبائل الأخرى، لغاتهم وثقافاتهم. من خلال ذلك صرت أقدر الأدب الغني والذي دائمًا يتمّ التعريف عنه على أنه «الأنثروبولوجيا الثقافية»، وهي بعكس «الأنثروبولوجيا الاجتماعية» والتي كتب عنها بشكل أساس البريطانيون فتحدثوا عن إفريقيا وجنوب شرق آسيا.

بعد عامين من قراءتي للأنثروبولوجيا، شعرت صدقًا أنني وصلت إلى درجة الإشباع حتى إنني شعرتُ أنه إذا قرأت كتابًا آخر فإنه سوف لن يضيف الكثير إلى ما تعلمت. الطرائق الأساسية نفسُها يمكن تطبيقُها ببساطة على ثقافة وأخرى. اعتقدت أنه لا حدّ للتعامل مع كل مجموعة بشرية كموضوع شرعي للدراسة. بدأ الملل يضرب في نفسي وبدأت أبحث عن ملاذ أكاديمي أُخر. وعملًا بنصيحة زميلي في السكن، والذي كان يدرس الاقتصاد، التقيتُ برئيس قسم الاقتصاد والذي اقترح عليّ أنه بناءً على خلفيتي فإن بإمكاني أن أنهي المقررات لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية بغضون سنتين.

وكان الرجل قد زار الأردن بصفته عضوًا في وفد أمريكي. وإعرابًا منه عن تأثره بالعرب، أراني ساعته، والتي نُقش في داخلها باللون الذهبي اسم الملك حسين بن طلال (ملك الأردن السابق). عندما رأيتُها، شعرت بالفخر لكوني عربيًّا.

في تلك الفترة، منتصف ربيع عام 1962، تلقى بروفيسوري الخاص، فيرنون دورجان، منحة كريمة من مؤسسة العلم الوطني من أجل أن يعاود زيارة قبيلة التمن[2] في سيراليون ويقوم ببحث ميداني هناك. طلب مني أن أكون مساعده فقبلت، الاقتصاد لم يكن لينفعني. لاحقًا، عندما سألت فيرنون عن سبب اختياره لي ردّ عليّ قائلًا: «لديك القدرة على أن تتواصل مع الجميع». يجب أن تكون الأنثروبولوجيا في دمي، أحببت هذا المبدأ.

(1) التمن: هم أكبر جماعة عرقية في سيراليون، ويشكلون 35 بالمئة من نسبة سكان البلد الإفريقي. يتركز تواجد هذه الجماعة في الإقليم الشمالي والمنطقة الغربية من سيراليون. سكان التمن في الغالب مزارعون أو صيادون أو تجار. [المترجم].


مرآة
البحرين
Bahrain
Mirror